عودة «الروح» والإرهاص بالثورة...

بقلم السيد الخولي

لست اريد ان اقول ان الاستاذ توفيق الحكيم قد تنبأ في قصة عودة الروح بمجيء ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، ولا بظهور شخصية الرئيس جمال عبد الناصر، بل يكفي ان ادعي ان هذا الكاتب القدير قد وضع أسس الادب الذي يعبر عن مجتمعنا الجديد بروحه وثوبه.

ومهمتي الان ان اكتب تحليلا لبعض الافكار التي وردت في قصة عودة الروح نفسها، والتي كتبها الحكيم قبل كتابه هذه السطور بنيف وثلاثين سنه.

ولو لم يكن هذا الكاتب قد تنبأ صراحة بظهور الثورة القومية في بلادنا عام ١٩٥٢، ولا بخلق المجتمع الاشتراكي الذي نعيشه في وقتنا الحاضر، لكفاه ان هذه الكتابات كانت تعبيرا عن وجدان الجماعة التي نحياها، وارهاصا بالثورة التي اتت حثيثا.

وليس من مهمة الاديب ان يتنبأ صراحة بحدوث التغيير في بلاده، وانما مهمته ان يدعو الى هذا التغيير وان يعبر عن الرغبات المكبوتة في فؤاد شعبه، خاصة وان كان هذا الاديب ممن يلتصقون أشد الالتصاق بجماهير الشعب وسواده.

ورغبة الكاتب في ان يعبر عن التغيير، لا تجيء في كثير من الاحايين مقصودة او متعمدة، لان التعمد قد يفسد ما يكتبه، ومن ثم يجيء مفتعلا لا روح فيه.. بل يكفي ان يكون هذا الكاتب قد عرك احداث وطنه وشارك فيها وانفعل بها، واحس ما يحسه سواد الشعب وغالبيته، وخالط الجماهير التي يتكون منها هذا السواد.. ومن هنا يترسب في وجدانه — الذي يشبه اللوح الحساس — ما قد يعيه من احداث شعبه وبلده، ثم يجنح الى التعبير عن كل هذا فيجيء تعبيره اصيلا عميقا لا زيف فيه.

وفي زمن كتابة هذه القصة (عام ١٩٢٧) كان شعبنا على مشارف انطلاقته الكبرى التي انتهت بتجميع قواه للثورة عام ١٩٥٢. ومجتمعنا في ذلك الحين كان نهبا لمطامع كبرى عديدة.. كان نهبا لاقطاع المستغل المتحكم، ونهبا للاستعمار ممثلا في قوتيه العسكرية والاقتصادية، ونهبا لفريق من ابنائه المتخاذلين الخائنين، ونهبا لحكم فاسد غشوم.. وامام هذه المطامع الكبرى، كان شعبنا يقف صامدا وقد رفع راية الكفاح التي كثيرا ما خضبت بدماء شهدائه.

وشرع الحكيم في كتابة هذه القصة والقدر تغلي للفوهة، وبالرغم من سلالته الارستقراطية وعائلته الثرية، فقد تخلى عن طبقته وانضم الى الشعب في ثورته.. واحس بوجدان الفنان الصادق ما يرزح تحته الفلاحون من عبء باهظ واستعباد مرير، ومن ثم شرع الحكيم في «اعادة الروح». والناقد البصير لا يستطيع الا ان يحكم بأن محسن الصغير بطل عودة الروح، هو نفسه توفيق الحكيم، يحكى لنا التجربه التي مارسها وانفعل بها.

وقبل ان يحدثنا الحكيم عن التغيير الثوري الذي يتطلبه الشعب، أعطانا صورة مفصلة واضحة لهذا الشعب ومجتمعه في ذلك الحين.. واعطانا صورة للمجتمع الاقطاعي الذي قاسينا منه.. وتحدث عن الاشتراكية المبسطة التي مارسها في محيط «الشعب» الصغير، الذي يتكون من أعمامه وعمته وخادمهم خلال دراسته بالقاهرة.. واشترك وهو بعد فتى في الخامسة عشرة مع هذا «الشعب» في أحداث ثورة سنة ١٩١٩. والمرحلة الزمنية الحاسمه في هذه القصة، هي الفترة التي عاد فيها محسن الى والديه في الريف لقضاء اجازة نصف السنة بينهم، فيرسم لنا غير متحرج، صورة اسرته الاقطاعية، ويعلن عن رغبته المكبوتة في قلب هذه الاوضاع.

وقد رسم الحكيم صورة للاقطاع في اسلوب بسيط رائع، وان كان هذا لا يمنعنا من اشتمام رائحة الدم والرغبة في الثأر خلال جوانب هذه الصورة، ثم رسم لنا صورة معبرة لام محسن بطل القصة، تجعلنا نسخر منها سخرية مريرة، ونحقد عليها حقدا امر، حين يحكى لنا لقاءها المتعجرف بالفلاحين في العزبة، وبالشيخ حسن ناظرها:

«ومشت الست نحو بيت العزبة فتبعها زوجها ومحسن والجميع.

وطفق الشيخ حسن يقول في الطريق:

— شرفتوا العزبة! والله سلامات.. سلامات يا حضرة البيه! سلامات يا حضرة الست.. سلامات يا بيه يا صغير.. سلامات كده..

وضاق صدر الست فصاحت بالشيخ المسكين:

— دوشتنا بقا.. هي سيرة سلامات!.. انتم له كده لكاكين يا فلاحين!

فامتعض الشيخ قليلا وخجل، ولكنه قال مبتسما:

— ربنا يطول عمركم! ما احنا يا ست فرحانين بكم..

فتأثر محسن قليلا، لكنه سار خلف والدته ساكنا مطرقا، ووصل الى علم الفلاحات قدوم اصحاب الوسية فحضرن يزغردن، وتقدمت اجرأهن تريد ان تتناول يد الست تقبلها، فانتهرتها الست بازدراء:

— بعيد!.. بعيد حاسبي توسخي فستاني!

فاقترب محسن من والدته، وقال بنبرة التأثر:

— ليه يا نينة تطرديهم؟ حرام!..

فأجابت بجفاء وقلة اكتراث وهي تجتاز باب البيت:

— حرام ايه.. دول فلاحين!»

وقد اراد الكاتب ان ينقل لنا مدلول كلمة «فلاحين»

كما نطقتها الست نقلا غير مباشر ، فأختتم بها الفصل الثالث من الجزء الثاني في قصته ، حتى نستطيع ان نلتقط انفاسنا بعد الانتهاء من الفصل ، ثم نمعن التفكير في هذه الجملة « حرام ايه .. دول فلاحين ! .. »

هذه هي صورة المجتمع الاقطاعي كما رسمت في كلمات بسيطة ذات دلالات عميقة ، اما صورة المجتمع الريفي الذي عاش في ظلال الحكم الاقطاعي ، فقد اعطانا له الحكيم صورا غاية في الاسى ، ممعنة في الالم ، كما اعطانا وصفا مفصلا لكفاح شعبنا البطولي من أجل غد مشرق وحياة كريمة .

وليس من المبالغة في شيء القول بأن هذه الصور التي رسمها الحكيم ورسمها كتاب كثيرون غيره لمجتمعنا الماضي ، بما فيه من ظلم يثير الدهش وجبروت يدعو الى الذهول ، ليس من المبالغة ان نقول ان هذه الصور ، قد فتحت عيون ابناء الشعب الواعين ، واثارت تفكيرهم والهبت خيالهم ، ثم كانت ارهاصا ونبوءة بحدوث التغيير الذي جاء عقب ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

وانا أود ان أعرض هنا مثالا لهذه الصور التي كانت ولا شك دافعا للثورة في النفوس ، والتي عرضها الحكيم عرضا رائعا على لسان حال محسن الصغير ، واغلب الظن ان الحكيم نفسه قد تقمص شخصية محسن حين حكى لنا هذا المنظر الذي صادفه في الغربة :

« وصادفه باب مفتوح فاطل برأسه داخله فلم يجد به احدا ، فعلم ان اصحابه قد سرحوا في الغيط .

فدخل مترددا وجعل ينظر الى المكان ، فرأى رحبة صغيرة مغطى نصفها بسقف من حطب القطن والاذرة الجافة ثم قاعة صغيرة، وكان باب القاعة مفتوحا كذلك .. فالقى محسن عينيه على ما بها ، فالفى منظرا لن ينساه .. رأى ان تلك القاعة انما هي قاعة النوم لاصحاب الدار ... واذا بها فرن وفوق الفرن حصير واغطية .. الا انه رأى كذلك في ركن منها بقرة امامها حمل برسيم ، وبين رجليها الخلفيتين عجل رضيع جميل يشب الى ضرعها ، غير ان ما ادهش محسن انه شاهد بجانب هذا العجل الرضيع طفلا رضيعا ايضا لعله ابن اصحاب الدار وهو يزاحم العجل ويدافعه على ضرع البقرة .. والبقرة ساكنة هادئة لا تمنع هذا ولا ذاك ، وكأنها لا تفضل احدهما على الاخر ..»

واظن ان هذه الصورة غنية بدلالاتها الحية النابضة عن اي تعليق ، وهي ترينا منظرا حيا لحياة قاساها وتألم منها هذا الشعب.. منظرا لدار الفلاح الذي يكد في الارض خلال مختلف الظروف والاجواء ، يصارع المرض واليأس ، فارغ البطن مثقل الظهر .. وعلى الرغم من ان عمله الاساسي هو انتاج الطعام ، الا انه لا يجد لنفسه هو الطعام ، وان وجد ليومه فلن يجد لغده .. وعليه ان ينام في حظيرة واحدة مع زوجه واطفاله الى جانب بهائمه !.. بينما الطعام والخير الوافر يذهب الى بطون اصحاب الوسية .. هذه البطون المتخمة والتي بالرغم من تخمتها البالغة ، فهي لا تتورع عن اختطاف الفتات من افواه المعوزين ..

وقد أثرت ثقافة توفيق الحكيم الفرنسية في نفسه وكتاباته ، وفي الفترة التي عاشها في باريس، كانت فرنسا بحكم ثورتها الماضية ، تعد منبعا للافكار التقدمية ، وموئلا للاحرار الذين نفتهم سلطات الاستعمار عن بلادهم ، وكان البريق الخابي لمشاعل الحرية فيها ، ما زال يجذب اليها قلوب المتعطشين الى الحق والسائرين في دربه . لذلك نجد توفيق الحكيم حين اراد ان يحدثنا عن اصالة شعبنا وروحه العظيمة ، اتى بشخصية فرنسية (جعلها عنوانا للحق) ، وذلك حوار بين مفتش الري الانجليزي ، واحد كبار موظفي الاثار الفرنسيين ، اللذين جاءا في زيارة لوالد محسن بمناسبة « تشريفهما » للعزبة .

ومفتش الري الانجليزي بحكم عملة لاهم له الا الحكم على جودة « الارض » ، كما ان فلاحي العزبة ــ من خلال نظرته الاستعمارية ــ ليسوا سوى نوع من البهائم مهمته فلاحة الارض ، فما ان وطئت قدمه ارض العزبة ، حتى انحنى فتناول قبضة من ترابها وفركها بين اصابعه وهو يتمتم خافتا معجبا بخصوبة التربة « ذهب ، ذهب » !

بينما نرى الفرنسي ــ بحكم الدور الذي اسنده اليه الكاتب ــ يهتم اكثر ما يهتم بأفكار ومفاهيم ذات صبغة سامية ، ويحلق بخياله المتسع في افاق عبرت من ذكريات التاريخ، وكيف كانت مصر في قديمها الغابر اما للحضارات ومنارا للانسانية في ظلماتها ، حتى انه عندما قارن بين ارض مصر وارض فرنسا من ناحية الجودة قال « فرنسا لم يسعدها الحظ ان تكون يوما موطنا للالهة يدخلونها كما فعلوا بارضكم .. » ، « انتم شعب عريق في الحضارة لا كشعوب اوروبا الوصولية .. »

واستطيع ان اقول غير متحرج ان الصفحات التي حوت هذه المناظرة بين الانجليزي والفرنسي، هي اروع جزء كتبه توفيق الحكيم في هذه القصة ، بل اكاد أجزم بأن الحكيم لم يكتب عودة الروح الا ليضمنها هذا الحوار الجميل الذي يستخلص منه القاريء الخلاصة الخالصة لمقومات شعبنا وقيمه وقواه .

والذي اعان توفيق الحكيم على المجيء بهذا الجزء الرائع في قصته ، هو ايمانه المطلق اللانهائي بعظمة شعبنا، وثقته الغالية المدركة في غد غير بعيد .. واعتقد ان توفيق الحكيم يعيش ــ ايامنا هذه ــ ساعات من الصفاء الروحي العميق ، وهو يرى افكاره منذ اكثر من ثلاثين سنة قد تحققت اليوم ..

لقد كان الاستعمار ينظر الينا نظرة ضيقة الافق معتمة الحدود .. حتى يقول مفتش الري الانجليزي متحدثا عن منظر العزبة « الجميل » الذي يطالعه من نافذة القصر :

« ــ لا ارى الا اسرابا من ذوي الجلابيب الزرقاء ...

فنظر الفرنسي الى الفلاحين ثم قال معجبا :

ــ ما اجمل ذوقهم ، لون لباسهم كلون سمائهم !

فارتسمت على فم الانجليزي ابتسامة تهكم وقال :

ــ انك تبالغ ، اذ تحسب لهؤلاء الجهلاء ذوقا !

فاجاب الفرنسي بايمان وقوة :

ــ جهلاء ! ان هؤلاء الجهلاء يا مستر بلاك اعلم منا !

فضحك الانجليزي ، وقال ايضا في تهكم :

ــ لانهم ينامون مع البهائم في حجرة واحدة !

طبعت على مطابع

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون : ٢٢٢٩٢١

فاجاب الفرنسي بجد :

ــ نعم ... وبالاخص لانهم ينامون مع البهائم في قاعة واحدة .

فالتفت اليه مستر بلاك محدقا ومبتسما :

ــ انها نكتة ظريفة يا مستر فوكيه .

فاجاب الفرنسي :

ــ بل حقيقة تجهلها اوروبا للاسف .. نعم ان هذا الشعب الذي تحسبه جاهلا ليعلم اشياء كثيرة ، ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله . ان الحكمة العليا في دمه ولا يعلم . والقوة في نفسه ولا يعلم . هذا شعب قديم .. جيء بفلاح من هؤلاء ، واخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة الاف سنة ، من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدري .. »

نعم .. هذه هي حقيقة شعبنا كما رواها الحكيم على لسان هذا الفرنسي ، وهذا هو معدنه الاصيل ... هذا الشعب الذي كان يخاف اسلاك الكهرباء منذ ما يقرب من نصف قرن ، والذي كان يتقي الشر والظلم والمرض باساليب السحر والشعوذة .. هذا الشعب استطاع ان يبني السد العالي في حاضرنا ، واستطاع ان يذهل العالم بانتصاراته في مختلف الميادين ..

هذا الشعب الذي ثار على غاصبيه ، ورفض ان يبيت مع البهائم في حظيرة واحدة لانه يملك الارض الواسعة ، هذا الشعب الذي فتح فكي الطغيان واستخلص حقه من بين انيابه ، هو نفس الشعب الذي اتهمه هذا الانجليزي المتعجرف بانه شعب جاهل .

ويستطرد توفيق الحكيم على لسان الفرنسي ، متحدثا عن معدن شعبنا واصالته الكامنة :

« نعم هو يجهل ذلك ، ولكن هناك لحظات حرجة تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب ، فتسعفه وهو لا يعلم من اين جاءته . وهذا ما يفسر لنا نحن الاوروبيين تلك اللحظات من التاريخ التي نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة في قليل من الوقت » ..

نعم هذا ما حدث صبيحة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ..

لقد طفت المعارف والتجارب على سطح جميع الاحداث ... واتى هذا الشعب بالعجب ، حتى بهت العالم فزعا وقد قامت بلادنا كانها المارد في صحوته ، وظهر الفلاحون ذوو الجلابيب الزرقاء عمالقة يطاولون السماء .. كانهم ارواح الذين استشهدوا من اجدادنا خلال كفاحهم المستمر ضد قوى الطغيان والاستعمار ، واستطاع هذا الفلاح الذي نام مع البهائم في حجرة واحدة ، والذي الهبت ظهره سياط الاقطاعيين وكبار الملاك .. استطاع هذا الفلاح ان يسمع دوي صوته للعالم كله ..

وقبل ان استطرد هنا ، احب ان اقف وقفة قصيرة لاعقد مقارنة لحديثين ، احدهما يسبق الاخر بثلاثين عاما او تزيد ..

الاول وهو السابق قول الاستاذ توفيق الحكيم على لسان الفرنسي مخاطبا الانجليزي في معرض المناظرة بينهما :

« ــ اجل يا مستر بلاك ! لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليوم ، ان القوة كامنة فيه ولا ينقصه الا شيء واحد ... نعم ينقصه ذلك « الرجل » منه الذي تتمثل فيه كل عواطفه وامانيه ويكون له رمز الغاية .. عند ذلك لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب، والمستعد للتضحية اذا اتى بمعجزة اخرى غير الاهرام ..»

اما القول اللاحق فهو قول الرئيس جمال عبد الناصر في كتابة « فلسفة الثورة » .

« لست ادري لماذا يخيل لي دائما ان في هذه المنطقة التي نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن « البطل » الذي يقوم به ، ثم لست ادري لماذا يخيل الي ان هذا الدور الذي ارهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة حولنا ، قد استقر به المقام متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا ويشير الينا ان نتحرك ، ان ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فان احدا غيرنا لا يستطيع القيام به . »

هذان هما الحديثان ، احدهما سبق ظهور الاخر بثلاثين عاما ، فهل ما كان بينهما من اتصال هو مجرد توارد الخواطر . وهل كان « الرجل » عند الحكيم هو نفسه « البطل » عند جمال ؟؟

لا اظن .. وانما كان بينهما ما هو اعمق من توارد الخواطر .. كان بينهما تشارك وجداني ، هو الذي جمع الشعب كله ووحد ارادته في وجوب تغيير المجتمع الذي نعيش فيه ، ووجوب الثورة على الانظمة الفاسدة المتحللة ، والتي عاقت تقدمنا مئات السنين .. كان بينهما ما قد ترسب في ذات الشعب ووعيه من الرغبة في تسليم الازمة والمقالد لابد يتحد فيها ويأمن لها .

اذن فقد تنبأ الاستاذ الحكيم منذ نيف وثلاثين سنة بظهور البطل القومي الذي يلتف حوله الشعب ، بل منذ مئات السنين عاشت صورة هذا البطل في وجدان شعبنا ،وعبر عنها في قصصه البطولي وملاحمه الشعبية .

واحس جمال عبد الناصر ، مثل توفيق الحكيم تماما ، بالحاجة والرغبة في وجود هذا « البطل » او الرجل الذي يتقمص الدور ..

وقبل الاثنين، كان الشعب يمعن التفكير ويدبر ويبحث الى ان كان فجر ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وكان قرار الشعب بانتخاب فلاح من ابنائه ليعقد له لواء البطولة ، وليسلمه الازمة .. وكان هنا الفلاح البطل هو الذي « اعاد الروح » !

الاسكندرية

السيد الخولي

صدر حديثا

مع الإمام عليّ

من خلال «نهج البلاغة»

دراسة مستفيضة عن عبقرية الامام علي كسياسي وحكيم من خلال خطبه ورسائله التي يتضمنها كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تأليف

خليل الهنداوي

منشورات دار الاداب